٢. زحـــام

حكاية عشوائية

كوكب الأرض متسع بحق.. مائة وثمانية وأربعون مليون كيلومترًا مربعًا من اليابسة يعيش عليها نحو ثمانية مليارات آدمي، يشكّلُ منهم "سيد الضبع" فردًا واحدًا يقف في غرفة معيشة شقته التي تمتد منها شرفة صغيرة تُظهر للمارة طلاءً أزرقًا رخيصًا أحاط جدرانها بطابع غير مريح، خصوصًا مع تساقط بعض أجزاءه العلوية عن بقع بيضاء كالبرَصِ في جلد رجل أسمر.. "سيد" في الخامسة والخمسين من العمر.. خمسة وخمسون عامًا تركت كل سنة تجعيده في وجهه، أو خيبة وانكسارًا في نفسه أو مرضًا ينهشُ جسده.. لم يعد يسيطر على ذهن "سيد" في الأيام الأخيرة إلا تساؤلٌ عن جدوى حياته التي يشعر بقوة أنها تقترب من نهايتها.. لم يدر من أين جاء التساؤل، لكنه تصاعد مع حلول عيد الأضحى الذي يمنحه فرصة من الفرص القليلة لإشباع شهوة كالأكل، والتي تذكره برفاهيةَ التنبه لحقيقة أن في الحياة رغبات وملذات ما يمكن أن تمنحه سعادة ولو وقتية غابت عن طفولته

البائسة المنسية، ومراهقته التي لا يذكر منها غير سجائر الحشيش القليلة التي كان يبتاعها كلما جمع بعض المال، ورجولته وكهولته التان دمرتهما مسؤوليات الزوجة التي توفاها الله منذ سنة، والأبناء الأربعة الذين تزوجوا ورحلوا إلى بيوتهم.. ألام عادية متكررة جاءت من أمال عادية جدًا تَلخّصَ تحقيقها لاحقًا في شقة ضيقة في مجاهل حي المكس بالإسكندرية يطل من شرفتها الآن متأملًا من الشرفة التي تبعد مترين فقط عن شرفة شقة "سليمان" الذي يملك هو الآخر واقعًا شبيهًا وإن كان أصغر سنًا.. زوجةٌ عادية أنجبت له أطفالًا عاديين، سيظلون يمنحونه أهدافًا عاديةً متسلسلة عبر مراحل تعليمهم الأقل من العادي.. أهداف قد يمكن لـ"سليمان" أن يكمل بها حياته مؤقتًا حتى اليوم الذي يجدوه فيه ميتًا على سريره، أو يسقط فيه ميتًا أثناء عمله تحت وطئ السكري الذي لم يجد له إلا علاجًا عاديًا يمنحه القدرة على الوقوف على قدميه، قدرةٌ منقوصةٌ يكمّلها بحقيقة أن عمله هو الحائل الوحيد بينه وبين الموت جوعًا. قد يضطر "سليمان" يومًا إلى بتر ساقه كما حدث مع جاره الآخر "محروس" القاطن في الشارع المقابل.. الشارع الذي يكاد لا يتسع لسيارة واحدة،

ورغم ذلك يصر "طارق" سائق "أوبر" على أن يمر بجانب سيارة "سلامة" القادم في الاتجاه العكسي كي ينهي رحلة بدأها "سمير" وزوجته "سها" اللذان قررا أن يقصدا الإسكندرية ليوم واحد بغرض "تغير الجو" والهرب من وطئه القاهرة ورتم حياتها المجنون، خاصة مع إجازة عيد الأضحى التي تلت إجازة نهاية أسبوع حافل. تقترب السيارتان ويطوي كلا السائقين "طارق وسلامة" مرآته كي لا تتحطم ويعبران بمعجزة ما، لا تقل عن معجزة بقاء "محسن كفتة" - كما يلقبه أهل المنطقة - حيًا حتى اليوم رغم توقف قلبه أربع مرات من قَبل جرّاء جرعات مخدرات زائدة، نجا "كفتة" ليتحول إلى ذلك الزومبي الممتلئة ذراعاه بالأوشام والهائم على وجهه في الشوارع المحيطة بمنزل "سيد" و"سليمان" و"محروس" و"رامي" والذي تتقارب فيه البنايات حتى يمكن لكل جار أن يصافح جاره المقابل من شرف المنزل دون حتى الحاجة للانحناء..

"رامي" مشكلته أكبر من ذلك بكثير، حيث يحاول منذ سنة تقريبًا أن ينال ذلك الركن المتسع في الشارع المقابل للقهوة التي يمتلكها.. تكوّنتِ المساحةُ التي تقارب السبعين مترًا تلقائيًا

كنتيجة لرص بنايات الحي عشوائيًا في تلك المنطقة المتاخمة لحي المكس. الركن يبدو مثاليًا كامتداد لقهوته الصغيرة التي يعتاش على نشاطها القانوني في أغلب الوقت.. كُلُّ ما يحتاجه هو أن يبدأ في إزالة أكوام القمامة من ذلك الركن المنعزل الذي اتخذه سكان المنطقة مقلبًا لقمامتهم التي لا تُرفع أبدأ، حتى إذا ضاق الركن بقمامتهم وزعوها بالعدل على أركان بناياتهم حتى صارت أكوام القمامة من العلامات المميزة لتلك البقعة الصغيرة، حتى أن معارضة "زكريا" العنيفة لرغبة "رامي" في مد بساط قهوته ليشمل تلك الساحة بدت كمعارضة لإزالة القمامة أكثر من امتداد القهوة، وهي حقيقة توارت عن "رامي" لأنه لم يعرف أن زكريا قد دفن "أسماء" - وهو الاسم الذي أطلقه عليها لأنه لم يعرف اسمها - في تلك الساحة منذ عامين وأربعة أشهر، بعد أن اختطفها هو "علاء سرنجة" واغتصباها في بدروم منزله، وفعلتها الفتاة وقررت أن تموت تحت وطئ الصدمة، فجعلا قبرها تحت أطنان القمامة. مات "علاء سرنجة" منذ عام فاطمأن "زكريا" لموت سره الذي يهدد "رامي" الآن باحتمالية فضحه رغم أنه

صب الكثير من الخرسانة فوق طبقة المطاط التي وضعها فوق الجثة لضمان عدم اكتشافها..

لم يقلق موقف "زكريا" "رامي" الآن أكثر من الخطوة التالية المطلوبة منه وهي رشوة "فرج" موظف الحي الذي أتي أكثر من مرة تلبية لشكوى السكان من تعاظم جبال القمامة، فلم يُفد بعد معاينته إلا بأنه لا يستطيع عمل شيء، لأن كل بنايات تلك الزنقة غير قانونية، رغم أن الحي قد وصّل لها المياه والكهرباء بمعجزة ما.. بالطبع نال شطائر الكباب من حاتي "بلبول" رغم سلبية إفادته، لكن الكباب كان لمجرد أن يأتي إلى المكان للمعاينة فقط، ولم يُناقش أحدٌ معه أثناء الاتفاق إصدار أي قرار، حيث أن لذلك تسعيرة أخرى يجب على "رامي" أن يستشير أحد المقربين من "فرج" كي يعرفها، بحيث لا يمانع أن يمنحه تلك الرخصة مقابل ربما بضعة ألاف يمكن أن يوفرها بصعوبة من بيع مزيد من الحشيش تحت ستار قهوته، أو مقابل مشروبات مجانية لـ "فرج" طوال عمره في الامتداد المستقبلي للقهوة التي اتخذها الكثير من شباب الزنقة مرتعًا للجلوس بلا هدف لمناقشة أحلام وطموحات لن تتحقق.. تلك الأحلام أحيانًا تشكل مهربًا

لـ"فادي" من حقيقة أن حياته أصبحت تتلخص في أعداد لا نهائية من أحجار معسل القص - المغشوش غالبًا، أو الوقوف على ناصية العطفة الثالثة مع صديقه "صموئيل".. العطفة الثالثة لها ميزة خاصة كلفتهما الكثير من العراك والشتائم وأحيانًا الدماء عندما فقدا ثالثهما "علاء سرنجة" في مشاجرة عظمى نالوا بها حق الانتفاع بالعطفة والسيطرة عليها، فلم يعد أحد يعترض على وقوفهم يدخنون الحشيش هناك، بل لا يشاركهم أحد في وقفتهما على رأسها مع من يستضيفونه أحيانًا..

"العطفة الثالثة" تقع مع نهاية شارع متسع امتلأ جانباه بجلود الأضاحي المغمورة بالملح كتمهيد لمراحل دباغة تتم في الهواء الطلق وسط حي سكني مكتظ، مما جعل تلك الأيام مميزة برائحة لا تطاق، رائحة مختلفة عن الروائح الأخرى - التي لا تطاق أيضًا - والمنبعثة من أكوام القمامة وروث الأحصنة الجارة للعربات التي تمرح في المكان حاملة زائري المدينة الساحلية.. بيد أن ميزة العطفة الكبرى هي أنها آخر نقطة في التكوين العشوائي للمنطقة، وبداية الطريق الرئيسي الذي يقود عبر المكس إلى منطقة رأس التين ثم العجمي في اتجاه ووسط الإسكندرية في الاتجاه الآخر..

الطريق يمر منه دائمًا بعض الحسناوات اللائي يعملن في المطعم السياحي الكبير الذي كان يقصده "سمير" وزوجته "سها" كنشاط رئيسي لليلتهما الوحيدة في الإسكندرية، والتي كبدتهما ثروة صغيرة لقضائها في فندق ذو خمس نجوم، وعشاء فاخر في مطعم أسماك يقع على البحر مباشرة..

تفرُّس تفاصيل الحسناوات العاملات في المطعم كان نشاطًا يستحق أن يتقاتل عليه شباب المنطقة رغم أن مرورهن يتكرر كل يوم كل حسب وردياتهن.. تمر الفتيات بزي المطعم المثير أو بملابسهن العادية لمن يتاح لهن تغير ملابسهن قبل مغادرة العمل، ثم يركبن المواصلات من نفس النقطة قرب العطفة الثالثة.. لكن "رنيم" ذات العينين الخضراوين الشفافتين كانت الهدف الأساسي لـ"فادي" وأحيانًا "يامن" الذي كان يتخذ من صداقته لـ"صموئيل" سببًا لأن يقف على العطفة محملقًا في تفاصيل تلك الحسناء الممتلئة صاحبة العينين العفاريتيتين والتي تقف كل ليلة بانتظار المشروع (الحافلة الصغيرة) ليقللها غالبًا إلى منطقة بحري حيث تعيش..

"رنيم" لاحظت نظراتهم يوميًا دون أن تفرق بينها أو بينهم، كانت متأكدة أن تحرش هؤلاء الصبية بها بصريًا وأحيانا بلمسات خاطفة عندما يعلو أثر الحشيش على عقولهم ضريبة يجب أن تدفعها مقابل شيء ما لا تدركه الآن.. ربما لاحقًا، أو ربما عقاب من الله على خلعها للحجاب تلبية لشروط العمل في المطعم السياحي.. جزء منها كان يؤمن بأن الله لا يقّيم الأمور بهذه الطريقة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في تلك الخاطرة التي ألقتها صديقتها "زينب" في نفسها يومًا عندما مرت "رنيم" بعاصفة تحرش جماعي أفسدت أسبوعها بالكامل حتى أنها فكرت في الانتحار، ثم عدلت عن الفكرة، أو أجلتها لسبب لا تذكره.. اتسقت "رنيم" مع واقع أن هناك ما هو أسوأ في الطريق لحياتها، فلم تعد تبادل ملوك العطفة النظرات، بل كانت تعبر مطرِقةً وكأنما تغض بصرها عنهم.. فهمت بعدها بشهور وهي تفكر في سبب لإطراقها أثناء جلوسها في "المشروع" أنها أعرضت عن تأملهم اشمئزازًا.. اعتبرتهم جزءًا من حياتها المثيرة للاشمئزاز، جزءً من القمامة المنتشرة في المنطقة، والتي أعادوها حتى لم يعد يمكن تميزهم عنها.. ناهيك أن وجود تلك الأكوام سيطر على الواقع في

تلك المنطقة – ومناطق أخرى - حتى أنه لم يعد يضايق أحدًا، تمامًا كتواجد هؤلاء الصبية في حياة "رنيم" وصديقاتها اللائي صاروا يعتبرونهم أكوامًا إضافية لأكوام قمامة منتشرة في حياتهن..

طبقات من القمامة جعلت "يسرا" تقرر الاستقالة بعد أن أكدت لـ "رنيم" وجهة نظرها عندما حكت لها أن "كريم عِرسة" - كما سمعتم يلقبونه ويهنئونه بعد فعلته - تجرأ اليوم ومد يده لامسًا إياها سريعًا وهي تهم بركوب المشروع.. "يسرا" في لحظة صراحة أمام عيني "رنيم" المريحتين اعترفت أن أكثر ما ألامها بعد فكرة الانتهاك هو طبيعة اللمسة.. لمسة لا يمكن أن تكون بغرض استثارة أو شبق أو عشق أو حتى شهوة.. بل هي كلمسة كلبٍ يطارد سيارة بلا هدف فتوقفت السيارة فجأة ليصطدم بها ثم يعدوا هاربًا.. لذلك مرت مرور "بصقة في البحر المتوسط ".. بصقة بصقها "عرفان" العامل على الحفار العائم قبالة المطعم السياحي الكبير الذي يتناول فيه الآن "سمير" وزوجته طعام العشاء..

بصقة في البحر المتوسط لن تفسده، لكنها قد تفسد حياة إنسان يعيش في نقطة وسط مائة وثمانية وأربعين مليون كيلومتر مربع من اليابسة..

سياق وسط مليارات السياقات الأخرى تكوّن حيوات متعددة.

سياق حياة واحدة، من المحتمل أن يخلق الاعتياد عليها عقدة لقصة يكتبها كاتب مختل، قرر أن يصيغ حكاية بلا عقدة أو حل أو بداية أو وسط أو نهاية.. حكاية عبارة عن بقة ضوء تتحرك عشوائيا على أشخاص في حيٍ في مدينة في محافظة في بلد في قارة وسط عالم متسع، لكنه ضيقٌ في الوقت ذاته..

حكاية عشوائية..

لكنها تبقى الحياة اليومية التي اختارها البعض..

تمت...